أَوْجُهُ الإِعْجَازِ القُرْآنِيِّ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الإِعْجَازِ؛ دِرَاسَةٌ اسْتِقْرَائِيَّةٌ

Manifestations of Miraculousness of the Holy Qur'an according to the investigators of miracle scientists; Extrapolation study

د. طارق زيناي

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/04/18 **تاريخ القبول**: 2020/05/18

ملخص:

لقد استأثرت دراسات الإعجاز القرآني باهتمام العلماء، فراحوا في ذلك مذاهب شتى؛ كلٌّ منهم يكشف وجه الإعجاز الذي يراه، الأمر الذي جعل الدرس الإعجازي يمتاز بالتوسع والتنوع في إثبات إلهية القرآن الكريم، من هذا المنطلق ستحاول هذه الدراسة استقراء وتتبع هذه الأوجه، وبيان ما قدمه محققو علماء الإعجاز من تخريجات بيانية ومعرفية وغيبية وقصصية ونفسية، وقد اعتمدت في ذلك على استقراء الدرس الإعجازي القديم والحديث، وذلك باعتماد آليتين مصاحبتين هما: الوصف والتحليل، ولعل أهم النتائج المتوصل إليها: هي أن محققي الدراسات الإعجازية قد كان خلافهم في بيان أوجه الإعجاز تنوعيًّا، اتفقوا على حضور الإعجاز في النص القرآني، واختلفوا في بيان أوجهه، وكذا غلبة الطرح البياني / البلاغي على المدرسة الأشعرية في إثبات أوجه الإعجاز المختلفة، وبخاصة ما يسمى نظرية النظم، أما أهم التوصيات التي يرى المقال ضرورة الاشتغال عليها: فهي ضرورة إعادة قراءة التراث الكلامي المشتغل على الدرس الإعجازي، والعمل على تكوين تصورات منضبطة حول الإضافات النوعية التي قدمها الأشاعرة والمعتزلة لهذا التراث، وكذا محاولة تطوير نظرية إعجازية حديثة تقوم على ما أتى به المحققون من العلماء السابقين، مع ضرورة الاستفادة من الدرس اللغوي الحديث.

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ: الأَوْجُهُ الإِعْجَازِيَّةُ؛ القُرْآنُ الكَرِيمُ؛ المُحَقِّقُونَ؛ عُلَمَاءُ الإِعْجَازِ؛ البَيَانُ.

المنارة للاستشارات

***Abstract*:**

The studies of the Qur'anic miracle sought the attention of scholars, and they went to various doctrines, each of them revealing the face of miracles that he sees. This made the miraculous lesson characterized by the expansion and diversity in the proof of the divine of the Holy Quran. From this point of view, we will try to extrapolate and follow these aspects, and to indicate the achievements of the investigators of miracle scientists of graphic, cognitive, absent, stories and psychological. In that, we relied on extrapolation of the ancient miracle lesson, and the modern adoption of two mechanisms with the adoption of two mechanisms, together with the adoption of two mechanisms. Description and analysis, and perhaps the most important findings: the investigators of miracle studies were other than their disagreement in the statement of miracles diversity, agreed to attend the miracle in the Qur'anic text, and differed in the statement of its aspects, as well as the predominance of the graphic/rhetorical presentation on the Ashaira school in proving the face of different miracles, especially the so-called theory of systems, the most important recommendations that the article considers necessary to work on: the need to re-read the verbal heritage working on the miraculous lesson, work to form disciplined perceptions about the qualitative additions provided by Ashaira and mouatazila to this inheritance, as well as to try to develop a modern miracle theory based on what the investigators of previous scientists came up with, while using the modern language lesson.

***Keywords*:** Miraculous approaches; the Qur'an; the investigators; the scholars of miracles; the statement.

المنارة للاستشارات

إنَّ الباحث في تاريخ النقد الأدبي منذ نشأته في العصر الجاهلي وما بعده، حتى أوائل عصر التدوين؛ أي القرن الثاني الهجري، يدرك أنَّه قد ارتبط بحقلين معرفيين كبيرين جدا أحدهما: البلاغة، والآخر: الإعجاز؛ فأما البلاغة شقت طريقها منذ القرن الثالث الهجري مع أعلام النقد المنهجي– القائم على المعطى اللغوي والبياني– آنذاك وعلى رأسهم ابن سلامٍ (ت232هـ) والجاحظ (ت255هـ) والمبرِّد (ت275هـ) وابن قتيبة (ت276هـ) وثعلب (ت291هـ) وابن المعتز (ت296هـ)، الذين رسموا معالم الدرس النقدي المؤسَّس لمن جاء بعدهم في القرن الرابع، كابن طباطبا (ت322هـ) وقدامة بن جعفر (ت337هـ) والمرزباني (ت384هـ)، وأبي هلال العسكري (ت395هـ)، فهولاء بدورهم استطاعوا أن يكملوا ما بدأه سلفهم من خلال وصل الدراسات النقدية بالبلاغة وفنونها، حيث جمعوا «ما تناثر في الكتب السابقة، ووضعوا الأسس والأصول، وربطوا النقد بالبلاغة ربطا وثيقا لا نجده عند غيرهم من نقاد هذا القرن»[1]، والملاحظ في هذه الطبقة هو حضور بعض من لمحات الثقافة اليونانية، عند قدامة بن جعفر وابن وهب، الذي كان في مجمله استلهاما بسيطا لا أثر له في مجال التطبيق النقدي.

وأما الإعجاز فقد كان له دورٌ بارزٌ في الدفع بالنقد وتطور مباحثه، حيث ارتبط ظهوره بالنص القرآني؛ الكتاب الأوحد في تاريخ اللغة العربية الذي وقف العرب إزاءه مبهورين. فهو حجة بالغة ومعجزة باهرة، لم يستطيعوا أمامه إلا الإقرار بما فيه من حلاوة، وبما عليه من طلاوة، وبما يستبطنه من أسرار وحقائق معجزة، وقصص وأمثال محكمة، وشرائع وأخلاق معجبة، فاتَّخذه الدارسون محور اهتماماتهم، ومناط استدلالاتهم اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية، حتى إنَّ كثيرا من الدارسين المعاصرين من يجعل «اهتمام النقد القديم بخدمة الأغراض الدينية، وخاصة قضية إعجاز القرآن الكريم، أكثر من الاهتمام بالنواحي الأدبية الفنية»[2] منهم محمد زغلول سلام وشكري عياد وشوقي ضيف وغيرهم.

وقبل التطرق إلى أوجه الإعجاز المختلفة كما قررها القدامى والمعاصرون، لابد من التمهيد بمجموعة من المفاهيم ذات الصلة المباشرة بقضايا الإعجاز القرآني، وسنحاول التدرج في إيرادها، بدءا بـ :

المنارة للاستشارات

- **مَفْهُومُ المُعْجِزَةِ:**

يعدُّ مبحث المعجزات والكرامات من المباحث التي تناولتها الثقافة العربية بالبحث من طرف الهيئات الدينية ذات التوجه النصّي، كأهل السنة والأشاعرة بالخصوص، وعلماء الكلام والفلسفة الإسلامية، والمهتمين منهم بالدراسات الإعجازية، من هذا المنطلق سنحاول التطرق لبعض القضايا المتعلقة بهذا المبحث فيما يلي:

*** المعجزة لغةً:**

مشتقة من الإعجاز تقول: أعجزت فلانا وعجَّزته وعاجزته إعجازا، أي: جعلته عاجزا، وجاء عند ابن منظور قوله: «العَجْزُ: نَقِيضُ الحَزْمِ، عَجَز عَنِ الأَمر يَعْجِزُ وعَجِزَ عَجْزاً فِيهِمَا؛ وَرَجُلٌ عَجِزٌ وعَجُزٌ: عاجِزٌ، ومَرَّةٌ عاجِزٌ: عاجِزَةٌ عَنِ الشَّيْءِ، (...) وَيُقَالُ: أَعْجَزْتُ فُلَانًا إِذا أَلْفَيْتَه عاجِزاً، والمِعْجِزَةُ والمِعْجَزَة: العَجْزُ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: هُوَ المِعْجِزُ والمِعْجَزُ الْكَسْرُ عَلَى النَّادِرِ وَالْفَتْحُ عَلَى الْقِيَاسِ لأَنه مَصْدَرٌ، والعَجْزُ: الضَّعْفُ، تَقُولُ: عَجَزْتُ عَنْ كَذَا أَعْجِز»[3].

وقد يأتي العجر بمعنى الفَوْتِ وَالسَّبْقِ: «يُقَالُ: أَعْجَزَنِي فُلَانٌ أَي فَاتَنِي؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الأَعشى: فَذاكَ وَلَمْ يُعْجِزْ مِنَ الموتِ رَبَّه وَلَكِنْ أَتاه الموتُ لَا يَتَأَبَّقُ»[4]

وجاء عند أبي البقاء الكفري قوله: «أعجزه الشَّيْء: فَاتَهُ، وَفُلَانًا: وجده عَاجِزا، أَو صيره عَاجِزا، ومعجزة النَّبِي: مَا أعجز بِهِ الْخصم عِنْد التحدي، وَالْهَاء للْمُبَالَغَة [5]، والمعجز فِي وضع اللُّغَة: مَأْخُوذ من الْعَجز، وَفِي الْحَقِيقَة لَا يُطلق على غير الله أَنه معْجزَة، أَي خَالق الْعَجز؛ وَتَسْمِيَة غَيره معجزا كـ (فلق الْبَحْر) و(إِحْيَاء الْمَيِّت) فَإِنَّمَا هُوَ بطرِيق التَّجَوُّز والتوسع من حَيْثُ أَنه ظهر بِقدر الْمُعَارضَة والمقابلة من الْمَبْعُوث إِلَيْهِ عِنْد ظُهُوره»[6].

وقد وردت مشتقات للكلمة في القرآن الكريم، وقوله سبحانه وتعالى خطابا للمشركين متوعدا لهم: ﴿**وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [التوبة: 3]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ**﴾ [الأنفال: 59] وقوله سبحانه أيضا: ﴿**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ [الحج: 51]

المنارة للاستشارات

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ [فاطر: 44]، وقوله على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ [الجن: 12].

من خلال التخريجات اللغوية والاستعمالات القرآنية، فإن الإعجاز لا يكاد يخرج عن كونه الإيقاع في العجز، ومنه جاء المعنى الاصطلاحي من حيث إنما سميت المعجزات بهذا الاسم لظهور عجز المرسل إليهم عن تحدي الأنبياء ومعارضتهم لهم بأمثالها.

وأما لفظة (المعجزة) بمعنى الأمر الخارق للطبيعة والعادة: فلم ترد في كتاب الله، وإنما وردت لفظة (الآية) أو (الآيات) لتدل على المعنى السابق، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾[البقرة: 118]، وقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾[البقرة: 211]، وقوله أيضا: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾[الإسراء: 59].

ولهذا اشتهرت تسمية المعجزة عند السلف الأول بالآية تمسكا بالاستعمال القرآني «لكن كثيرا من المتأخرين يُفرِّق في اللفظ بينهما، فيجعل (المعجزة) للنبي، و(الكرامة) للولي وجماعها الأمر الخارق للعادة»[7].

حتى جاء الواسطي (ت306هـ) في القرن الثالث الهجري وبدايات الرابع، فألف كتابا بعنوان: "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" قاصدا بذلك الاستعمال الاصطلاحي لها.

*** المعجزة اصطلاحا:**

جاء في تعريف المعجزة عند السيوطي قوله: «اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية»[8].

ويعرفها الشريف الجرجاني بقوله: «المعجزة: أمر خارق للعادة، داعٍ إلى الخير والسعادة مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله»[9].

فهي بهذا أمر خارق للعادة يؤيد الله بها أنبياءه وتحدي أعدائهم بها، حتى يتبين لهم صدقهم فيما يدعون إليه، ومعلوم في شرط التحدي هو «أن يكون الخصم متمكنا من

المنارة للاستشارات

الجهة التي تتحداه بها، وإلا بطل التحدي»[10]، فقوم موسى كانوا أهل سحر وتخييل فكانت العصا المنقلبة إلى ثعبان من جنس ما يحسنونه، يقول الجاحظ مقررا هذه الحقيقة: «ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر، ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه، وكشف ضعفه وإظهاره، ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام؛ لأنه لو كان أتاهم بكل شيء، ولم يأتهم بمعارضة السحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة، لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة، ولاعتل به أصحاب الأشغاب، ولشغلوا به بال الضعيف، ولكن الله تعالى جده، أراد حسم الداء، وقطع المادة، وأن لا يجد المبطلون متعلقا، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات، وضروب العلامات»[11].

وكان قوم عيسى أهل طبٍّ، فكان إبراء الأكمه والأبرص والأعمى، وإحياء الموتى إعجازا لهم وتحديا فيما يحسنونه، يقول الجاحظ معللا هذه المناسبة كذلك: «وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله، وعلى خاصة علمائه الطب، وكانت عوامهم تعظم على ذلك خواصهم، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى، إذ كانت غايتهم علاج المرضى، وأبرأ لهم الأكمه إذ كانت غايتهم علاج الرمد، مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات، وضروب الآيات؛ لأن الخاصة إذا بخعت بالطاعة، وقهرتها الحجة، وعرفت موضع العجز والقوة، وفصل ما بين الآية والحيلة، كان أبخع للعامة، وأجدر أن لا يبقى في أنفسهم بقية»[12].

والأمر نفسه مع العرب في الفصاحة والبيان، فجاء القرآن بجنس ما برعوا فيه، يقول الجاحظ أيضا في هذا: «وكذلك دهر محمد (ﷺ)، كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله عز وجل، فتحدَّاهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينتقصهم على نقصهم، حتى تبين ذلك لضعفائهم

المنارة للاستشارات

وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط، مع سائر ما جاء به من الآيات، ومن ضروب البرهانات»[13]، ويقول كذلك في نص آخر: «وجاء بهذا الكتاب الذي نقرؤه، فوجب العمل بما فيه، وأنه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء، بنظمه وتأليفه، في المواضع الكثيرة، والمحافل العظيمة. فلم يرم ذلك أحد ولا تكلفه، ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه، ولا ادَّعى أنه قد فعل»[14]، وفي الحيوان يقول كذلك: «وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به»[15].

وجدير بالإشارة إلى أن الإعجاز البياني خاص بالقرآن وحده دون الكتب السماوية الأخرى، يقول الباقلاني في هذا: «فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز، كالتوراة والإنجيل والصحف؟ قيل: ليس شئ من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار عن الغيوب، وإنما لم يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنَّا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن، ولمعنى آخر، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة، ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز، ولكنه يتقارب»[16]، وبعد هذا الإجمال ذكر أسباب اختصاص القرآن الكريم دون غيره بالإعجاز، من ذلك ما يلي[17]:

- أننا لا نجد في الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات، ويشهد لذلك من القرآن: أن الله تعالى وصفه بأنه: ﴿**بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[الشعراء: 195]، وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميا.
- لو كان في لسان العجم مثل فصاحة العرب، لم يكن الله ليرفع كتابه لهذه المنزلة.
- أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الالسنة، وهم من أهل البراعة فيها، وفي العربية فقد وقفوا على أنه ليس فيها من التفاضل والفصاحة، ما يقع في العربية.
- لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادَّعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادعى لهم المسلمون ذلك.

المنارة للاستشارات

– أن الشعر الذي هو من أعلى الكلام فصاحة وبيانا لا يتأتى في تلك الألسنة، على ما قد اتفق في العربية.

من خلال ما سبق يتبين لنا أنَّ المعجزة هي برهانٌ ربانيٌّ لأنبيائه ورسله، حتى يثبتوا صدق دعواهم في النبوة أو الرسالة، ويظهر صدق المعجزة عندما يتحدى النبيُّ بها قومه، ثم يعجزون عن الإتيان بمثل الفعل الخارق الخارج عن نطاق الطبيعة البشرية الذي جاء به أو جرى على يديه، مما يفهم منها أنها ليست من عنده، لكنه مؤيد من الله بها.

أما مفهوم إعجاز القرآن في نفسه، فهو مركب إضافيٌّ مكون من كلمتي : "إعجاز" و"القرآن" ويعني عدم قدرة الكفار على معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر الدواعي لذلك، وامتلاكهم القوة البيانية، وعرفه مالك بن نبي بقوله: «الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها»[18].

ويعرف محمد سعيد رمضان البوطي المعجز معلقا على محترزات مفهوم القرآن الكريم بقوله: «ويقصد منه ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان اللذين أعجزا بلغاء العرب كافّة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدي المتكرر، ورغم التطلّع الشديد لدى الكثير منهم إلى معارضته والتفوق على بيانه»[19].

- **أَوْجُهُ إِعْجَازِ القُرْآنِ:**

إنَّ إعجاز القرآن مرتبط ارتباطا كاملا بإثبات صحَّة نبوة محمد (ﷺ)، من هنا تكاثرت الآراء في تبيان وجه هذا الإعجاز عند الفرق الإسلامية المختلفة، والتي في مجملها جاءت متضافرة لتثبت هذا الإعجاز لا باعتبار الاختلاف، ولكن باعتبار التنوع، ولهذا نجد الدارسين القدامى والمحدثين قد تنوعت أوجه الإعجاز عندهم، بحيث تجاوزت عند بعضهم العشرين وجها، ولكنها عند المحققين من علماء الإعجاز، يحصرونها في الآراء الآتية:

القَوْلُ الأَوَّلُ: أنَّ وجه إعجازه، يرجع لخصوصية تأليفه بين الألفاظ والمعاني، أو ما يعرف بالنظم، وذلك يظهر «بِأَنِ اعْتَدَلَتْ مُفْرَدَاتُهُ تَرْكِيبًا وَزِنَةً وَعَلَتْ مُرَكَّبَاتُهُ مَعْنًى بِأَنْ يُوقِعَ كُلَّ فَنٍّ فِي مَرْتَبَتِهِ الْعُلْيَا فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى»[20] ومن هذا الوجه كذلك الفصاحة والبيان، الذي

المنارة للاستشارات

أعجز الفصحاء، وغلب البلغاء، وشاهد فصاحته، مارُوِيَ عن الأصمعي قوله: «اجتزت ببعض أحياء العرب، فرأيت صبية معها قربةٌ فيها ماءٌ وقد انحلَّ وكاء[21] فمها، فقالت: يا عمِّ، أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها، فأعنتها، وقلت: يا جارية، ما أفصحك! فقالت يا عمِّ، وهل ترك القرآن لأحدٍ فصاحةً؟ وفيه آيةٌ فيها خبران وأمران ونهيان وبشارتان! قلت: وما هي؟ قالت: قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[القصص:7]»[22]، ومن الفصاحة ما ذكره أبو هلال العسكري في قوله: «وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، فى حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه»[23]، ويذكر الجاحظ علة أخرى لهذا الإعجاز، ترجع إلى أن القرآن قد جمع ما تفرَّق في كلام الناس، بحيث يستحيل على كل البشر جمع ما تكلم به الناس في نسق أو نظم واحد، يقول الجاحظ مبينا هذه الفكرة: «لا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع؛ ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»[24].

ومعلوم أن النظم الذي تكلم عنه البلاغيون قديما، يتفاوت ويتفاضل الناس فيه، أمَّا في القرآن فقد وصل إلى حدِّ الإعجاز، الذي يخرج عن طاقة البشر.

هذا وقد ذكر الباقلاني عشرة أوجه ترجع إلى هذا القول[25]:

1/ منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، «ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا؛ وللنظم أعاريض وأوزان محددة معروفة وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبيّنة ومعروفة. والقرآن ليس على أعاريض الشعر في

المنارة للاستشارات

رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه، إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك»[26]، وهذه الحقيقة أدركها المشركون لما سمعوا القرآن لمعرفتهم بخصوصية الخطاب الأدبي شعره ونثره عندهم، ويتجلى تميز الجملة القرآنية في القرآن كله، ولهذا جاء التحدي بأبعاضه وبجملته، يقول الرافعي مبينا هذا المعنى: «وذلك أمر متحقق في القرآن الكريم: يقرأ الإنسان طائفة من آياته فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس ترادف ما بعدها وتمده، لا تزال هذه الصفة في لسانه، ولو استوعب القرآن كله، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها، أو نكرت منها، أو أبرزتها عن ظل هي فيه، أو دفعتها عن ما هي إليه: ولا يرى ذلك إلا سواء وغاية في الروح والنظم والصفة الحسية، ولا يغتمض في هذا إلا كاذب على دخله ونية، ولا يهجن منه إلا أحمق على جهل وغرارة، ولا يمتري فيه إلا عامي أو أعجمي، وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون»[27].

2/ أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر.

3/ أنّ عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ويشتمل عليها وإنما هو على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، وذلك من كل أوجه الخطاب كالقصص والمواعظ وضرب الأمثال وقصص الأولين، فلا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، إذ من المعلوم أنّ الكاتب مهما بلغت موهبته في التصرف والتمكن في ميادين القول المختلفة كالمدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء، ومع هذا لا نكاد نجد من يبلغ فيها كلها مبلغا واحدا من المهارة والتميز، يقول محمد سعيد رمضان البوطي في هذا الوجه من أوجه الإعجاز مقررا ما ذكره الباقلاني: «مهما رأيت بليغا كامل البلاغة والبيان، فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي يطرقها، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنى من المعاني، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها»[28] وبالعكس

المنارة للاستشارات

التام من ذلك لا يمكن أن نجد «هذا التفاوت في كتاب الله تعالى، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة، وتقرأ بعد ذلك مقطعا في التشريع وأحكام الحلال والحرام، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان. وتنظر فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها»[29].

4/ أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شئ إلى شئ، والتحول من باب إلى باب والقرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة – يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حدّ الآحاد.

5/ أنّ نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الانس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا.

6/ أنّ الذي ينقسم إليه الخطاب، من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم – موجود في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة.

7/ أن المعاني التى تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع.

8/ أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذها الاسماع وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديا، غامرا سائر ما تقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهى غرة جميعه، وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه، وتخصصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه.

9/ أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمانية وعشرون سورة وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من

المنارة للاستشارات

حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

10/ أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوه في موقعه – أن يقدر عليه، أو يظفر به.

يقول عبد العزيز عبد المعطي عرفة معلقا على هذه الأوجه العشرة التي أوردها الباقلاني: «هذه هي خصائص النظم القرآني كما يراها الباقلاني وقد بناها على فكرة أن النظم القرآني خارج على المعهود من نظوم كلام العرب من ناحية تصرف أسلوبه في تناوله للمعاني والتعبير عنها مع أن الحروف حروفهم، والألفاظ ألفاظهم»[30].

القَوْلُ الثَّانِي: إعجازه بما أخبر به عن قصص الأولين من الأنبياء وقومهم وحكايات الأمم السابقة، بشكل موثق ومفصَّل، كالذي حكاه من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر وحال ذي القرنين...، يقول تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[يوسف: 3]

القَوْلُ الثَّالِثُ: إعجازه في الإخبار عن الضمائر في وقت نزول القرآن، دون أن يظهر ذلك في قول ولا فعل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا**﴾[آل عمران: 122] وقوله: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**﴾[الأنفال: 7] ﴿**وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾[المجادلة: 8].

القَوْلُ الرَّابِعُ: إعجازه يرجع إلى أنَّ قارئه لا يَمَلُّ، وأنَّ مع إكثار تلاوته تزيده حلاوته في النفوس، يقول ابن قتيبة مبرزا ذلك: «وجعله متلوًّا لا يملُّ على طول التّلاوة، ومسموعا لا تمجُّه الآذان، وغضًّا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا، لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده»[31].

المنارة للاستشارات

القَوْلُ الخَامِسُ: أنَّ وجه إعجازه يرجع إلى ما فيه من إخبار بالغيب وبالأمور المستقبلية وهذا ممَّا لم تعرفه العرب، خاصة وأن كثيرا مما أخبر به القرآن وقع، الأمر الذي يوجب تصديقه والإيمان به، كقوله في غزوة بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[القمر: 45] وكقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[النور: 55]، وقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[الروم: 2]، وغيرها من الآيات، وليس يُفْهَمُ وجه الإعجاز هذا، أنَّ غير الآيات التي لا إخبار فيها عن الغيب ليست معجزة بنفسها، بل الإعجاز في كلّ سور القرآن بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة، وهذا الوجه ليس معتبرا لوحده عند كثير ممن تكلموا عن الإعجاز القرآني، يقول القاضي عبد الجبار: «فأما من قال إنه (ﷺ) إنما تحدى بالقرآن من حيث تضمن الإخبار عن الغيوب، فبعيد؛ لأنه قد تحدَّى بمثل كل سورة من غير تخصيص ولا يتضمن كل ذلك الإخبار عن الغيوب، ولأنَّا نعلم أنه تحدَّى بجملته، ولا ببعضه»[32] وقد أضافت عائشة عبد الرحمن سببين آخرين غير التي ذكر القاضي عبد الجبار[33]:

- أن كثيرا ممن لهم فضل السبق في الإسلام آمنوا بمعجزة القرآن، إثر نزول السور الأول منه، دون انتظار تحقق تلك الغيوب المستقبلية، حتى يدركوا وجه الإعجاز فيه.
- أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل فيها من أخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء أكثر تفصيلا مما في القرآن، «ولم يقل أحدٌ لأن الكتب السماوية كانت معجزات رسلِها وآيات نبوتهم، ولا علمنا أن عيسى وموسى عليهما السلام، تحديا قومهما أن يأتوا بسفر أو إصحاح من مثل التوراة والإنجيل»[34].

القَوْلُ السَّادِسُ: أنَّ وجه إعجازه، هو كونه جامعاً لعلوم لم تكن فيهم آلاتها، ولا تتعاطى العرب الكلام فيها، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد، ولا يشتمل عليها كتاب وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال النبي (ﷺ): «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ...»[35]، وهذا لا يكون إلا عند الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وما

المنارة للاستشارات

يمكن دخوله في هذا الوجه من الإعجاز العلمي: الإعجاز الكوني والطبي والعددي، ومما يمكن إدراجه في هذا الوجه أن القرآن الكريم خطاب يصلح لجميع الناس باختلاف مداركهم وتفاوت استيعابهم لمعانيه، بل وتباعد أزمانهم، فكل الناس يفهم من القرآن على قدر ما عنده من إدراك وآليات التلقي والقرب أو البعد عن الوصول إلى مراد الله تعالى يقول محمد سعيد رمضان البوطي مقررا هذه الفكرة: «القرآن جارٍ على أسلوب يصلح أن يخاطب به طبقات الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم، فهو يعطي كلّا، من معانيه وأحكامه قدر طاقته وما يتسع له فكره؛ فإذا أراد القارئ أن يستشف منه ما وراء ذلك وينتهي في سبر أغواره إلى أكثر مما فهمه منه بطبيعته وفكره، فإن سبيله إلى ذلك الرجوع إلى فهم من هم أوسع منه علما وأغزر ثقافة وفهما ليبصروه بما وراء الذي انتهى عنده علمه من دلائله ومعانيه»[36].

ويذكر ابن قتيبة سبب جعل الله – تعالى – كلامه ليس على نسق واحد من حيث الإحكام أو التشابه؛ أو العموم أو الخصوص؛ أو الظهور أو التأويل، وذلك في قوله: «لو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر»[37].

القَوْلُ السَّابِعُ: أنَّ إعجازه شيء لا يمكن التعبير عنه، وهذا اختيار السَّكَّاكي، الذي نقل عنه الزركشي قوله: «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت»[38]، ولا يدرك هذا الإعجاز إلا من سلمت فطرته، وتمكَّن من علمي البيان والمعاني، إذن فليس للبشر القدرة على الإحاطة بأسراره وحقائقه، وفي هذا السياق أجاب بُنْدَارٌ الفارسي عن مَوْضِعِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ: «هذه مسألة فيها حيف على المعنى وذلك أنه شبيه بقولك ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء فيه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده»[39].

المنارة للاستشارات

القَوْلُ الثَّامِنُ: إعجازه في أوجه البلاغة المتعددة، وهو قول أكثر أهل محققي علماء الإعجاز، وعلى رأسهم الخطابي الذي يقول: «أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية: فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة: فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة»[40].

القَوْلُ التَّاسِعُ: أنَّ إعجازه هو بصرف الهمم عن معارضته، مع استصحاب القول بالقدرة على ذلك، وهو ما يعرف في الدراسات القرآنية والإعجازية بفكرة الصَّرفة، والتي يعرفها الخطابيُّ بقوله هي: «صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدورا عليها، وغير معجزة عنها إلا أن العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجرى العادات صار كسائر المعجزات»[41].

مما سبق يمكن القول: إنَّ الآراء التي تكلمت عن إعجاز القرآن، يمكن ردُّها لوجهين فقط: **أَحَدُهُمَا**: إِعْجَازٌ مُتَعَلِّقٌ بِنَفْسِهِ، ويدخل فيه كل مراتب الإعجاز التي سبق تناولها. **وَالثَّانِي**: بِصَرْفِ النَّاسِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وهو المقصود بمقولة الصَّرفة.

إنَّ الرائي لهذه الأوجه المختلفة يرى أنها بجموعها يمكن أن تكون كلها مقصودة بإعجاز القرآن، يقول الخطابي بعدما ذكر جملة مما اختصَّ به القرآن من الآيات الباهرة والحجج البالغة في لفظه ومعناه، وأحكامه وشرائعه، وقصصه وأوامره ونواهيه: «ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم، وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرَهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله»[42].

أما ما رواه لنا التاريخ عن معارضات للقرآن الكريم ممن ادَّعى النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطلحة بن خويلد الأسدي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية، أو ما يُروى عن ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء المعري، فهي لا تعدو أن تكون محض تفاهات، لا

المنارة للاستشارات

يصدقها الغبي الأحمق من الأعراب، فما بالك بالعقلاء منهم، فقد وصلتنا أخبار مسيلمة الذي «زعم أن له قرآنًا نزل عليه من السماء, ويأتيه به ملك يُسَمَّى "رحمن"، بيد أن قرآنه إنما كان فصولًا وجملًا، بعضها مما يرسله، وبعضها مما يترسَّل به في أمر إن عرض له، وحادثة إن اتفقت، ورأي إذا سُئِلَ فيه، وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان؛ لأنه كان يحسب النبوة ضربًا من الكهانة فيسجع كما يسجعون» [43].

وقد ذكر الرافعي نماذج لقرآنه المزعوم، من ذلك قوله: «والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللَّاقمات لقماً، إهالة وسمنا (...) لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه» [44].

وهناك نقطة مهمَّة كذلك هي موضع خلاف بين علماء الإعجاز من المتكلمين وغيرهم، وهي تحديد القدر المعجز من القرآن الكريم، ولعلَّ الرأي الراجح في المسألة هو أن القرآن معجز بكليته وبأبعاضه، فهو معجز في حروفه وكلماته ونظمه وسوره وآياته، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه، يقول تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[النساء: 82]، وفيما يلي نصٌّ لأبي العلاء المعري يتكلم فيه عن إعجاز القرآن، ما يردُّ به عن دعوى معارضته القرآن[45]، يقول: «وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ، وناكبٌ عن المحجَّة ومقتدٍ، أنّ هذا (الكتاب) الذي جاء بن محمد (ﷺ) كتاب بَهَرَ بالإعجاز، ولقي عدّوه بالإرجاز[46] ما حُذِيَ على مثال، ولا أشبهَ غريبَ الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرَّجز من سَهْلٍ أو حزون، ولا شاكل خِطَابَةَ العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأرب، وجاء كالشمس اللائحة، نوراً للمُسرَّة والبائحة؛ لو فهمه الهضب الرّاكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصَّدَع: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ وإنَّ الآية منه أو بعض الآية، لتعترض في أفصح كَلِمٍ يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشَّهاب المتلألئ في جُنْحِ غَسَقٍ، والزّهرة البادية في جدوبٍ ذاتِ نَسَقٍ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين» [47].

المنارة للاستشارات

وهناك خلاف آخر فيما يخصُّ تحدي الله العرب بالقرآن، هل كان من الأقل إلى الأكثر؛ سورة من مثله، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾[البقرة: 23]، وبسورة مثله، يقول تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**﴾[يونس: 38]، صعودا بعشر سور مثله، يقول تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ**﴾[هود: 13]، وانتهاء بالقرآن كله، يقول تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء: 88] أو أن الأمر على عكس هذا من الأكثر إلى الأقل؟ فأكثر القدامى يذهبون إلى القرآن تحداهم بالإتيان بمثله، ثم بعشر سور، ثم بسورة، وهذا على رأي سيد قطب يفتقر للإثبات يقول في هذا: «قال المفسرون القدامى: إن التحدي كان على الترتيب: بالقرآن كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لا حقة في النزول، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود، والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز»[48] إلا أنّ محمد رشيد رضا يرى أنّ هذا الترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول، خاصة وأنّ التحدّي في سورتي هود والإسراء كان مرتبطا ببعض أوجه الإعجاز: «وهو ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم وهو من أخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه»[49].

وفي العموم يمكن القول: إن الإعجاز حاصل بالقرآن كله أو بأبعاضه، يقول الباقلاني: «لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى، وأقنع وشفى، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينة سواها، بل قصة من قصصه»[50].

- **ملاحظة:** جدير بالذكر أن بعض المحققين من العلماء قد استدرك على كثير من أوجه الإعجاز التي أوردها الأولون، ومن هؤلاء ابن قيم الجوزية، الذي عرض مجموعة من أوجه

المنارة للاستشارات

الإعجاز، فاعترض على بعض منها – لا تشكيكا في إعجاز القرآن ولكن تصويبا لما يراه مجانبا للصواب– من ذلك اعتراضه على من يرى إعجاز القرآن من جهة إيجازه واحتوائه المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وكذا القول بإعجازه لما يحويه من غرابة الأسلوب، واتساقه الغريب، الذي خرج عن أعاريض النظم، وقوانين النثر، وأنماط الأراجيز، وكذا إعجازه بما فيه من المعاني الخفية والجلية، والعلوم العقلية والنقلية؛ كإخباره عن علم تاريخ القرون السابقة وقصص الأنبياء، وإخباره بما كان وما يكون مما وقع على حكم ما أخبر به، وغيرها من الأوجه الأخرى[51].

خَاتِمَة:

من خلال ما سبق يمكن القول: إنَّ القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد فتح الباب أمام العلماء والمتكلمين كي يثبتوا إعجازه المطلق في كل المستويات التي يستبطنها، وأنه هو الحجة البالغة التي أعجزت الناس، وستظل تعجزهم إلى قيام الساعة، فصاحة وبلاغة وبيانا، ويمكن إجمال النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية:

- أنّ المعجزة القرآنية هي معجزة بيانية في الدرجة الأولى، فهي الأصل، والأوجه الإعجازية الأخرى فرع منها.
- أنّ لظهور الدرس الإعجازيِّ في الأمة الإسلامية أسباب ومقتضيات، لعلَّ من أهمها إثبات إلهية القرآن وصدق النبوة، وتقوية الإيمان واليقين في قلوب الناس.
- أن الآراء المختلفة افترقت في تقرير أوجه الإعجاز، واجتمعت على إثباته.
- أن الفضل الكبير في إثراء هذا الحقل المعرفي المهم يرجع إلى علماء الأشاعرة والمعتزلة في الغالب دون غيرهم.
- يعدُّ الباقلاني والجرجاني من الأشاعرة والقاضي عبد الجبار من المعتزلة من أهم من درس المعجزة القرآنية بيانيا.

المنارة للاستشارات

اقْتِرَاحَاتٌ وَتَوْصِيَّاتٌ:

- تعميق دراسة القضايا المتعلقة بالقرآن وإعجازه وعلومه، وإقامة ملتقيات وندوات وأيام دراسية في ذلك.
- العمل على إعادة بعث التراث الإعجازي في الثقافة الإسلامية، وبخاصة التراث الكلامي، والبناء عليه بما يخدم النص القرآني.
- توسيع النقاشات حول القضايا المتعلقة بالإعجاز القرآني، وتوجيه طلبة العلم إليها لإنجاز مشاريع بحثية في ذلك.

الهَوَامِشُ والإحالات

(1)– أحمد مطلوب، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، وكالة المطبوعات، الكويت ط1، 1973، ص 08.

(2)– يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث)، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص16.

(3)– أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب،ج 5، دار صادر، بيروت، لبنان ط3، 1414هـ ، ص 369، مادة : " عَجَزَ".

(4)– المصدر نفسه، ج5، ص 370.

(5)– أي المبالغة في الخبر عن عجز المرسل إليهم عن معارضته، وهذا كقولنا: علَّامة، فهَّامة نسَّابة، راوية.

(6)– أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) تح: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998، ص 149.

(7)– أبو العباس تقي الدين بن تيمية، قاعدة في المعجزات والكرامات، تح: حمَّاد سلامة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1989، ص07.

(8)– جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1974، ص 03.

(9)– علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة مصر، 2004، ص 184.

المنارة للاستشارات

(10)– عبد العزيز عبد المعطي عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 71.

(11)– الجاحظ، الرسائل (رسالة الحنين إلى الأوطان)، ج3، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1964، ص 278 – 279.

(12)– المصدر نفسه، ج3، ص 279.

(13)– المصدر نفسه، ج3، ص 279 – 280.

(14)– المصدر نفسه، ج3، ص 251.

(15)– الجاحظ، الحيوان،ج4، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1965، ص 90.

(16)– أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة، مصر، ط5، 1997، ص31.

(17)– يُنظر: المصدر نفسه، ص 31 – 32.

(18)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4 1987، ص60.

(19)– محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1420 هـ / 1999، ص 25.

(20)– أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1957، ص 95.

(21)– الوكاء: هو الخيطُ الذي تُشَدُّ به الصُّرَّة أَو الكيسُ وغيرُهما.

(22)– أبو المظفر أسامة بن منقذ، لباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة مصر، ط2، 1987، ص 329.

(23)– أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1952، ص1.

(24)– الجاحظ، الرسائل (رسالة الحنين إلى الأوطان)، ج3، مصدر سبق ذكره، ص 229.

(25)– يُنظر: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، مصدر سبق ذكره، ص 35– 47.

المنارة للاستشارات

(26)– محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل مرجع سبق ذكره، ص 111.

(27)– مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط9، 1973، ص 275.

(28)– محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل مرجع سبق ذكره، ص114.

(29)– الصفحة نفسها.

(30)– عبد العزيز عبد المعطي عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، مرجع سبق ذكره، ص 408– 409.

(31)– أبو محمد عبد الله بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 11.

(32)– يُنظر: أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج16 تح: أمين الخولي، وزارة الثقافة، القاهرة، مصر، 1960، ص 20.

(33)– المرجع نفسه، ص 93.

(34)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(35)– هذا الأثر مختلف في رفعه للنبي (ﷺ)، أو وقفه على الصحابة (ابن مسعود أو علي رضي الله عنهما)، فمن الذين رفعوه الحاكم النيسبوري في مستدركه، والمنذري في الترغب والترهيب، وممن رجحوا كونه من كلام الصحابة ابن الجوزي وابن كثير، وقد رواه باللفظ السابق أبو عيسى الترمذي، السنن، ج5، تح: وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1975، ص 172. الحديث رقم [2906] والدارمي في سننه وغيرهما، والحديث ضعفه محمد ناصر الدين الألباني في كتاب ضعيف الجامع الصغير وزيادته وكتاب ضعيف سنن الترمذي وكتاب سلسلة الأحاديث الضعيفة وإن كان معناه صحيحا يُنظر: ضعيف سنن الترمذي، المكتب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 349.

(36)– محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل مرجع سبق ذكره، ص 71.

(37)– أبو محمد عبد الله بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مرجع سبق ذكره، ص 58.

المنارة للاستشارات

(38)– أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، مصدر سبق ذكره، ص 100.

(39)– جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج4، مصدر سبق ذكره، ص 14.

(40)– الرماني والخطابي والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1976، ص 26.

(41)– أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، مصدر سبق ذكره، ص 22.

(42)– الرماني والخطابي والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، مصدر سبق ذكره، ص28.

(43)– مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط8، 2005، ص 121.

(44)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(45)– ينسب ياقوت الحموي في سياق إشارته لفكرة الصرفة كلاما لأبي العلاء يرى أنه عارض به القرآن الكريم، وهو قوله: «أقسم بخالق الخيل، والريح بليل، بين الشّرط ومطلع سهيل، إنَّ الكافر لطويل الويل، وإنَّ العمر لمكفوف الذيل، اتّق مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج» أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج1 تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 325، من خلال البحث في مؤلفات المعري، وجدت النصَّ السابق في كتابه: الفصول والغايات (فصلٌ غاياته جيمٌ)، بإضافات لم يذكرها ياقوت، ولكن ليس فيه أية إشارة لمعارضته القرآن به، إلا أن يكون للمعري كتاب آخر بالعنوان نفسه، أو مما دُس عليه من غيره، يُنظر: أبو العلاء المعري، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، دط دت، ص253– 254.

(46)– الإرجاء والارتجاز: هو صوت الرعد.

(47)– أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تح: عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف القاهرة، مصر، ط9، 1993، ص 472 – 473.

(48)– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، دار الشروق، القاهرة، مصر / بيروت، لبنان، ط17 1412هـ، ص1861.

المنارة للاستشارات

(49)– محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر، 1990، ص161.

(50)– أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، مصدر سبق ذكره، ص 195.

(51)– يُنظر تفصيل أوجه الإعجاز والردِّ عليها ابن القيم في كتابه : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 246– 255 وكذا: عمر محمد عمر باحاذق، أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، ط1، 1994، ص 24 – 32.

المنارة للاستشارات